

## رثاء الإمام الحسين (ع) في ملحمة عيد الغدير

على پيرانى شال\*

حسين روستائى\*\*

### الملخص

تقصد هذه المقالة دراسة مضامين الرثاء الحسينى فى ملحمة «عيد الغدير» للشاعر المسيحى بولس سلامة بدءً بمقدمة فى أدب الطفّ، ومن ثمّ تتحدّث المقالة عن حياة الشاعر الفاسية وآثاره، خاصة ملحمة الإسلامى الكبرى التى نال بها الشاعر شهرة مدوية فى عالم الأدب؛ كما تشير إلى شخصيته التى دفعته إلى التصدى لها، العمل الذى يمثّل غنى روحه التى تسامت عن روحية معلبة؛ بعد أن أبدى رغبته فى نظم الشعر فى أهل البيت (ع)، خاصة الإمامين على والحسين (ع)، و تعنى بأمجادهم. فلم يكن باستطاعة الشاعر أن يسرد التاريخ من دون أن يبدى موقفه من هؤلاء الأبطال وهو يراهم كنموذج مثالى يحتذى؛ وهذه الدعوة من جانب شاعر مسيحى إلى التمثل بالإمامين (ع) تستوقفنا أكثر حينما نعلم أنه نظم ملحمة فى العام نفسه الذى احتلت فيه فلسطين. وهو بذلك يعتقد أن الأمة العربية فى ذلك الزمن لأحوج ماتكون إلى التمثل بأبطالها الغابرين. هذا و قد تجلّى انجذاب الشاعر بشكل خاصّ عند الحديث عن واقعة الطفّ، بحيث نجده يبكى ليلة نظم مصرع الحسين (ع) فيسطر بقلمه ما يبكى الآخريّن. وهكذا فإنّه ومن خلال إظهار أحاسيسه ومشاعره المرهفة يخرج فى أحيان كثيرة على التقليد المعروف فى الملحمة كنوع من الشعر الاشخصى وذلك خروج لا تعيب منه ملحمة، بل نراها تتال إعجاب النقاد واستحسانهم. وأخيراً تنتقل المقالة إلى تعداد مضامين رثاء الإمام الحسين (ع) فى ملحمة سلامة، من ذكر فضائله (ع) وبيان عظمة مصيبيته وغيرهما ممّا ورد فيها.

الكلمات الرئيسية: الإمام الحسين (ع)، الرثاء، الملحمة، بولس سلامة.

\* أستاذ مساعد بجامعة الخوارزمى pirani@tmu.ac.ir

\*\* ماجستير فى اللغة العربية وآدابها من جامعة الخوارزمى hossainroostaei@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٢/٣، تاريخ القبول: ١٣٩١/٢/١٨

## ١. المقدمة

إنَّ الرثاء من الموضوعات البارزة في الشعر العربي وهو ذو إطار واسع؛ إذ يشمل رثاء الأهل والأقارب، كما يشمل غير ذلك من رثاء عظماء الدين وكبار العلماء. لكنّه قلماً يوجد أو لعلّه لا يوجد رثاء كتب له الخلود والتجدّد بحيث قيل في موضوع واستمرّ ذلك الرثاء مع توالي العصور كالذي نشهده في رثاء الإمام الحسين (ع)؛ فنحن نرى في دواوين الشعر والمجموعات الشعرية المختلفة مرثى كثيرة، إلاّ أنّها نظمت في عهد دون آخر، وذلك لأنّها كانت تنحصر عند فقدان عزيز، أو في اضطرار الشاعر لسكب الدموع أمام سلطان ما لينال حظوته. لكنّ وقعة الطفّ باعتبارها أكبر وقعة رسمت من خلالها ملاحم البطولة والفداء والعقيدة والإيثار، لم يشهد التاريخ مثيلاً لها، لم تمنح صورتها عن وجه الأدب، لا أدب الشيعة وحسب، بل تجاوزته إلى آداب غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى. فثمة أدباء من أديان ومذاهب مختلفة كالمسيحية تأثروا بواقعة الطفّ وما أصاب الحسين (ع) يوم عاشوراء، فتعرّضوا لأحداثها في آثارهم وإبداعاتهم الفنيّة، ومن هؤلاء، الشاعر الملحمي المسيحي بولس سلامة. إنّ أدب ذي رؤية عميقة وفكرة متعالية، حيث يتعرّض في ملحمة أدبية عظيمة لمنعطفات مصيرية من تاريخ الأمة الإسلامية، منذ فجر الإسلام وحتىّ نهاية دولة بني أمية. وقد اختصّ بولس سلامة الجزء الأخير من هذه الملحمة بموضوع عاشوراء وأحياها في ملحمة بأسلوب مؤلم حزين، يتأثّر به كل قارئ ويتألم له. هذه الوقفة المشرفة من الشاعر بعثتنا على اختيار موضوع رثاء الإمام الحسين (ع) في ملحمة. ترجو هذه المقالة أن تصل إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. كيف كان الشعر الحسيني الذي بدأ ينظم بعد استشهاد الإمام (ع)، من حيث حجمه؟ وما هو السبب في ذلك؟ وما الذي كتب له الخلود والاستمرار إلى عصرنا هذا؟
٢. ما الذي دفع بمسيحي إلى التصدّي لتاريخ الإسلام وإبداع ملحمة إسلامية؟ وما الذي أثار انبهاره بأبطال المسلمين خاصّة الإمامين عليّ والحسين (ع)؟
٣. ما هي مكانة ملحمة «عيد الغدير» في الأدب وكيف كان موقف النقاد منها؟
٤. إلى أيّ حدّ كان هذا الأديب المسيحي مندمجاً مع أبطال الإسلام؟ وإلى أي مدى كان شريك آلامهم و حليف آياتهم؟
٥. ما هي ميزة عمل الشاعر في نظم ملحمة، خاصّة الجزء الأخير منها الذي يختصّ بأحداث كربلاء؟ هل اكتفى الشاعر بسرد الأحداث أم لمعالجتها ميزة تجلب الانتباه؟
٦. ما هي المضامين الرثائية الحسينية في ملحمة؟

## ٢. عاشوراء والأدب

إن واقعة كربلاء وتأثيرها في الأدب شيء لا نستطيع أن نجد له مثيلاً في الوقائع الأخرى التي عني بها الأدباء في آثارهم، وذلك بعد مضيّ فترة طويلة عليها؛ يقول محمّد جواد مغنّية:

إنّ الحسين قد مضي على استشهاده ألف وثلاثمئة سنة أو تزيد، ومن يومه إلى يومنا هذا والأجيال من قوميات شتى ينظمون فيه الأشعار بالفصحى وغير الفصحى. وقد تغيّرت الحياة ومرت بالعديد من الأطوار وقضت على الكثير من العادات إلا الاحتفال بذكرى الحسين والتهاتف باسم الحسين نثراً وشعراً (شبر، ٢٠٠١: ١/ ١٠).

إذن فعاشوراء قد ألهمت المشاعر والعوطف وخلفت في قلب الأديب أثراً لا تزال نتيجته تظهر في الأدب؛ فعند مراجعة التراث الأدبي نثراً أو شعراً نجد الكثير الكثير من المؤلّفات والقصائد التي عنيت بهذه المناسبة لا يمكن إحصاؤها. أمّا في النثر فيختصر ذلك عامةً على كتب التاريخ والمقاتل التي عرضت لما جرى لآل البيت (ع) في كربلاء بأسلوب مشبع بالحسرة والتفجع (نورالدين، ١٩٨٨: ٧٩، ٨٠).

لكن لعاشوراء في مجال الشعر صدى خاصّ متميز؛ يقول محمّد شمس الدين:

إنّ المسلمين الشيعة قد أنشأوا في هذا المقصد [الثناء الحسيني]، بأية لغة تكلموا من عربية أو فارسية، أعمالاً شعرية تتجاوز في حجمها ما أنشأوه في المقاصد الأخرى (شمس الدين، ١٩٩٦: ١٣٦).

وفي ذلك رأى آخر لمحمد جواد مغنّية حيث يقول:

ما عرفت البشرية جمعاء عظيماً من أبنائها قيل فيه الشعر ما قيل في الحسين بن علي (ع)، ولو تصدّى متبّع للمقارنة بين ما نظم فيه ونظم في عظماء الدنيا لتعادت الكفتان أو رجحت كفة الحسين (شبر، ٢٠٠١: ١/ ١٠، ١١).

أمّا هذا الرثاء الحسيني الذي بدأ بعد قليل من تلك الواقعة<sup>١</sup> والذي كان أخصب عصوره المدّة الواقعة ما بين استشهاده (ع) وبين نهاية الدولة العباسية (نور الدين، ١٩٨٨: ٨٣)، لتشجيع الأئمة هذا النوع من الشعر وإكرامهم قائله وتحديثهم عن فضل نظم الشعر في فضائلهم ومصائبهم وثوابه العظيم عند الله تعالى (المصدر نفسه؛ الحسن، ١٤١٨: ١٨٦)، هذا الرثاء الحسيني، لا يزال متدفقاً حتى عصرنا هذا في أشعار الأدباء. لكنّ السبب لم يقتصر على ذلك بل تعدّاه إلى أسباب أخرى من حبّ أهل البيت عند الشعراء وانجذابهم إلى شخصية الإمام الحسين (ع) وطريقته، فمنهم من ينظم فيه مقتفياً مسلكه ومرامه (خزعلي، ١٣٨٣: ١٦، ١٧).

وهذه الأسباب كانت مما دفع الشعراء إلى أن يتخذوا من تلك الواقعة موضوعاً يعالجونه في شعرهم؛ خاصة حين كان الشعر لا يزال مجالاً أوسع لبروز العواطف الكامنة المرهفة وبيانها وأنّ مأساة عاشوراء تمسّ المشاعر والأحاسيس أكثر من أيّ شيء آخر (نور الدين، ١٩٨٨: ٨٣).

يبدو ممّا ذكر أنّ واقعة الطفّ، بما رافقها من غلظة الخصم وفضاعته وقساوته من جهة، ومن جهة أخرى بما فيها من أهداف سامية، قد شغلت مجالات الأدب عامّة ومجال الشعر خاصّة، دون أن يعتربه حدّ فيحدّده في لغة واحدة؛ فإنّ لتلك الأهداف السامية التي أدّت بالحسين إلى القيام بتلك الثورة، مكانة عند الشاعر الحسيني. وبما أنّها أهداف مطلقة لم يعرف لها حدّ؛ فالحسين (ع) عندهم أكبر من الحدود. والأدب الذي ينطلق من ورائه ينبغي أن يكون كذلك. ومن هذا المنطلق كان هنا وهناك شعراء من مذاهب وأديان مختلفه جمعهم الحسين (ع) تحت لواء واحد فصاروا يعرفون بسيماء الحسين ويطلق على أحدهم عنوان الشاعر الحسيني. ومن هؤلاء الشعراء بولس سلامة الشاعر المسيحي<sup>٢</sup> الذي اختصّ الجزء الأخير من ملحمة<sup>٣</sup> بواقعة كربلاء، بعد تطرّقه لأهمّ أحداث التاريخ الإسلامي فيها.

### ٣. حياة الشاعر بولس سلامة و آثاره

شاعر لبناني كبير؛ ولد في بتدّين [بيت الدين] اللّقى إحدى قرى الجنوب اللبناني سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م<sup>٤</sup> (سلامة، بلا تا: ١٠؛ البعلبكي، ١٩٩٢: ٢٤٠؛ شامي، ١٩٩٩: ٩٦/٣). انكبّ على دراسة التراث العربي وخاصة سيرة عنترة، وكليّة ودمنة، وبعد انتهاء الحرب الكونية الأولى سنة ١٩١٨م دخل مدرسة القرية، مزرعة الظهر ثمّ انتقل إلى معهد الحكمة في بيروت سنة ١٩١٩م. حاز على احترام سكان قريته وإعجابهم فانتخبوه لمنصب شيخ الصلح، وهو لم يكن قد جاوز الثامنة عشر بعد (نور الدين، ١٩٨٨: ١٢١، ١٢٢). إلّا أنّ شيخوخة سرت في بدنه منذ سنة ١٩٣٦م (الضيقة، ١٣٧٧، العدد الثاني عشر/ ٢١٣) ورافقته حتى أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٤٤م. ونظراً لسوء حالته الصحية<sup>٥</sup>، لُقّب بأبوب القرن العشرين لشدّة صبره على الآلام التي اكتنفت حياته. توفي سنة ١٩٧٩م في بيروت ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه بتدّين فدفن فيها (نور الدين، ١٩٨٨: ١٢٢).

انصرف بولس سلامة في حياته القاسية إلى التّأليف ونظم الشعر. له في النشر كتابان هما «حديث العشية» و«الصراع في الوجود» وفي السيرة الذاتية «مذكرات جريح»، «حكاية عمرو»، «عيد الستين» (عيد، ٢٠٠٤: ٢٠، ٢١).

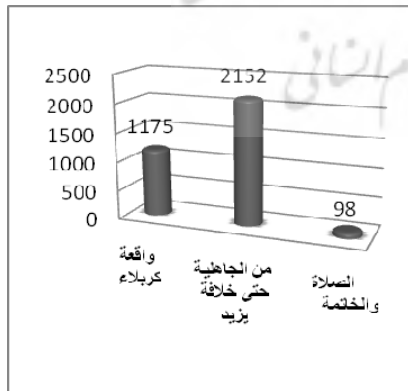
أمّا في الشعر فكان من أصحاب الباع الطويل، خاصة أنّه كان بارعاً في نظم الملحمة؛ فقد

غلب النفس الملحمي على كثير من شعره (البعليكي، ١٩٩٢: ٢٤٠). وله في هذا المضمار ديوان صغير عنوانه «على والحسين» وملحمة «عيد الرياض» وملحمة «عيد الغدير» التي بها نال شهرة مدوية في عالم الأدب، حيث لُقّب بالشاعر الملحمي (نور الدين، ١٩٨٨: ١٢٢). فكانت ملحمته هذه هي أفضل ما يمثّل الملحمة الحقيقية في الأدب العربي الحديث؛ وقد أجاد الشاعر في نظمها إجادة تحلّه المحلّ الأوّل بين ناظمي الملاحم العربية وترفع ملحمته إلى مصافّ الحسان من الملاحم الإفرنجية بينما لم تكن أكثر الملاحم البطولية التي ظهرت في الأدب العربي إلّا محاولات لم تستكمل نضجها تماماً (المقدسي، ١٩٨٨: ٣٩٥).

وقد تحدّث أسعد داغر عنه كشاعر ملحمي و أشاد به قائلاً: «إنّه في الملحمة أنتج أدباً يقف جنباً إلى جنب مع الآداب الخالدة و أحياناً يبتزّها» (داغر، ١٩٨٣: ٣٤٩). كما أنّ مارون عبّود قال عنه:

لا ريب عندي أنّ بولس سلامة هو أكبر شعراء الضاد نفساً ... قال ابن جنّي: من شاء أن يؤلّف في النحو بعد سيبويه فليستح. أجل فليستح أولئك الذين يسمّون كرايسهم ملاحم بعد بولس سلامة (عيد، ٢٠٠٤: ٣٨).

استغرق نظم ملحمة «عيد الغدير» ستة أشهر؛ ثلاثة منها انصرف الشاعر خلالها إلى دراسة المراجع التاريخية وثلاثة للنظم (سلامة، ١٩٩٠: ١١). وهي تتشكل من سبع وأربعين قصيدة يبلغ مجموع أبياتها ٣٤٢٥ بيتاً؛ أما واقعة كربلاء فهي تتشكل الجزء الأخير منها في ١١٧٥ بيتاً بدءاً بوصف يزيد وفسقه وتهاونه بالدين. وجدير بالذكر أنّ لهذه الملحمة قصيدتين لا تتطرّقان إلى أحداث التاريخ بل تتوجّهان إلى دعوة الله ومناجاته، وهما قصيدة البداية «صلاة» وقصيدة الختام «الخاتمة». هذا عرض كلّی لملحمة «عيد الغدير» ومكانة واقعة كربلاء فيها:



## ٤. شخصيته

جدير أن نقف هنا وقفة عند ملحمة «عيد الغدير» لكي نتعرف عليها و على ناظمها؛ فقد ظهرت هذه الملحمة في عام ١٩٤٨م وعكست تاريخاً حافلاً بالبطولات الإنسانية والأمجاد الأخلاقية والفروسية، وقد كان ظهور هذه الملحمة في نفس العام الذي أعلن فيه عن قيام ما يسمى بدولة إسرائيل؛ هذا الإعلان الذي يعكس بمرارة ما وصلت إليه الأمة العربية والإسلامية من ضعف وتراجع (السيد، ٢٠٠٤: ٩). ولا نريد هنا أن نطيل الكلام عن احتلال فلسطين وما تبعه من نكبات أثرت في وجود كل إنسان كإنسان فما بالك بمن ينتمي إلى هذه الأمة بعقيدته أو بمحتده. ولعل ظهور هذه الملحمة، بما فيها من البطولات الإنسانية والأمجاد الأخلاقية المتمثلة بارزة في الإمامين علي والحسين (ع)، في نفس العام الذي احتلت فيه فلسطين، كان يحمل في طياته نظرة الشاعر نحو طريق فيها الحرية والنجاة من الظلم الذي يحيق بالأمة العربية. وهي طريق تتمثل في منحى أبطال الإسلام الغابرين. ولعل أبرز من يواجهه الإنسان منهم في أول نظرة في تاريخ الإسلام هو الإمام علي (ع) وابنه الحسين (ع)؛ فالشاعر في تلك السنة التي «كان الشعراء ينظرون [فيها] إلى ما وراء الضباب رأى في رسالة الإسلام والرسول محمد (ص) وأهل البيت (ع) ملحمة كبرى، يمكن أن تهز وجدان الأمة العربية؛ فقدّمها من أجل إضاءة سراج في طريق الأمة نحو حياة حرة كريمة» (المصدر نفسه). هذا ونحن حين نتصفح ديوان الشاعر وما قدّمه لملمحته نجد أقواله تأييداً لما ذكر آنفاً. فنراه يقول:

إن العروبة المستيقظة اليوم في صدور أبنائها ... لأحوج ما تكون إلى التمثل بأبطاله الغابرين، وهم كثر. على أنه لم يجتمع لواحد منهم ما اجتمع لعلي من البطولة والعلم والصلاح. ولم يقم في وجه الظالمين أشجع من الحسين فقد عاش الأب للحقّ وجرّد سيفه للزيادة عنه منذ يوم بدر، واستشهد الابن في سبيل الحرية يوم كربلاء، ولا غرو، فالأول ربيب محمد والثاني فلذة منه (سلامة، ١٩٨٦: ٨).

أجل، بولس مسيحي يتصدى لملحمة إسلامية؛ لأنه يرى أن التاريخ مشاع للعالمين. فينحني أمام عظمة رجل يهتف باسمه مئات الملايين من الناس في مشارق الأرض ومغاربها خمساً كل يوم. رجل ليس في مواليده حواء أعظم منه شأنًا (المصدر نفسه). ثم يؤثر من أصحاب النبي (ص) علياً (ع) لأنه لا يرى في الكون أحداً اجتمع له ما اجتمع لعلي من البطولة والعلم والصلاح. كما لا يرى أحداً أشجع من الحسين (ع).

نعم، كل ذلك رأى مسيحي ولا عجب فيما اعتقده الشاعر والذي أشير إليه ممّا ذكره الشاعر كمقدّمة لملمحته؛ لأنّ المسيحي قد يعيش الإسلام حضارة وروحاً وحركة وإنسانية، إذا

لم يعيشه في حالة انتماء، كما يعيش المسلم المسيحية في عناصرها القيمة الأصيلة. وذلك ممّا يمثّل غنى الفكر الذي ابتعد عن الدائرة المغلقة، وغنى الروح التي تتسامى عن الروحية المعلّبة (مجهول، ٢٠٠٩: ٥، ٦).

وبناءً على ذلك نرى الشاعر بولس سلامة يقول حول حبّه لأهل البيت (ع): «إذا كان التشييع حباً لعلّي وأهل البيت المطيبين الأكرمين، وثورةً على الظلم وتوجّحاً لما حلّ بالحسين وما نزل بأولاده من النكبات في مطاوى التاريخ، فإنّني شيعي» (سلامة، ١٩٨٦: ١٢)، كما نراه ينشد هذا البيت:

جَلَجَلَ الْحَقُّ فِي الْمَسِيحِيِّ حَتَّى عُدَّ مِنْ فَرَطِ حُبِّهِ عَلَوِيَا

(المصدر نفسه: ٣١٢)

فيبدو أنّ هذه الرؤية نابعة من نظرة عميقة قد أفاد بها الشاعر كما يتّضح من قوله بأنّه «مسيحي ينظر من أفق رحب لا من كوة ضيقة» (المصدر نفسه: ١٠) فإنّ سلامة كما يقول الدكتور حسام الضيقة:<sup>٧</sup>

واحد من أبناء الرسالة العيسوية التي بشرت بالخير والمحبة وأتباع الحق. فلا يمكنه لذلك إلّا أن يكون أميناً مندفعاً وراء إشعاعاتها المتجسدة في كلّ رجل عظيم تعبق في روحه روحانية العقيدة السماوية وتمتلكه عقلاً وروحاً وممارسة (الضيقة، ١٣٧٧: العدد الثالث عشر / ١٥٣).

ولا عجب في ذلك؛ قال الله تعالى خطاباً للنبي (ص): «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» (المائدة: ٨٢).

## ٥. الرثاء

الرثاء من الموضوعات البارزة في الشعر العربي. إذ طالما بكى الشعراء من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة (ضيف، ١٩٨٨: ٥). وهو يعني في اللغة البكاء على الميت كما جاء في لسان العرب: «رثى فلاناً يرثيه رثياً ومرثية إذا بكاه بعد موته. فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه مرثية... ورثوت الميت إذا بكيتّه وعدادت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعراً» (ابن منظور، بلاتا، مادة رثاء). والتدب من أقسام الرثاء الثلاثة<sup>٨</sup> وهو يعني بكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت؛ فيئنّ الشاعر ويتفجّع وينظم الأشعار ويبتّ فيها لوعة قلبه وحرقتّه. لكنّه لم يقتصر على الأهل والأقارب فحسب بل يندب الشاعر من ينزلون منه منزلة الأهل والأقارب. ومراتى الشيعة من خير الأمثلة التي تصوّر ذلك (ضيف، ١٩٨٨: ٥).

وقد كانت واقعة كربلاء وما حلّ بأهل البيت النبوي يوم عاشوراء من أقسى المشاهد التي يمكن أن يشهدها البصر أو يسمعها السمع. فإنّ قساوة الخصم وفعلهم الجريء بأهل البيت النبوي ممّا لا يمحي أثره عن أذهان محبيهم، بل قد هيج قلوبهم وألهب أحاسيسهم وأظهر أثره في آدابهم.

### ٦. رثاء الإمام الحسين (ع) في ملحمة «عيد الغدير»

لقد عالج الشاعر واقعة كربلاء في الجزء الأخير من ملحمة الإسلام كما ذكرنا آنفاً؛ لكن لم تكن هذه المعالجة سرداً تاريخياً فحسب، بل وقف الشاعر كثيراً عند سرد التاريخ أو بعده أو في أبيات مستقلة عنه، وقف عند أحداث الواقعة فتراه يتأثر حيناً بمشاهد كربلاء ثم يصفها ويظهر تأثره بأشكال مختلفة؛ لأنّه بولائه لأهل البيت وشغفه بهم لا يستطيع أن يسرد التاريخ دون أن يتحدث عن مشاعره وآلامه.<sup>٩</sup> وعن ذلك يقول الدكتور حسام الضيقة في الحديث عن الملاحم وعن ميزات نوع من الشعر اللاشخصي الذي يتوارى فيه الشاعر خلف القصيدة بأنّ هذا التقليد الذي بدأ مع هوميروس<sup>١٠</sup> لم يكن شاعر ملحمي بعده ملتزماً به. وبولس سلامة أيضاً خرج على هذا التقليد، إمّا بالحديث المباشر عن نفسه وإمّا بالشعور الذي يخلعه على أبطاله (الضيقة، ١٣٧٧: العدد الثاني عشر / ٢١٤). فبذلك نراه في هذه الملحمة حيناً يتكلّم عن فضائل أهل البيت ويمدحهم، وآخر يعبر عن حزنه وتوجّع لما أصابهم من مصائب. وإليك ما وصلت إليه المقالة من مضامين الرثاء في شعره:

### ١.٦ وصف يزيد وفجوره وأعماله السيئة

قبل أن يتعرّض الشاعر لأحداث كربلاء يقدم وصفاً ليزيد، في رأس دولة إسلامية، وفسقه وتهاونه بالدين تمهيداً لبيان أحداث كربلاء، ولعلّ ذلك مقدّمة تبين ضرورة حركة الإمام الحسين (ع). فيزيد مترف سكير يقضي معظم وقته بمعاقرة الخمر وملاعبة قردته وكلابه لا يكثر بشعائر الدين بل يستخفّ بها. ومن قول الشاعر في عدم اهتمام يزيد بشعائر الدين والاستخفاف بها:

رَافِعَ الصَّوْتِ دَاعِيَاً لِلْفَلَّاحِ      إِخْفِضِ الصَّوْتِ فِي أَذَانِ الصَّبَّاحِ  
أَلْفُ «اللَّهِ أَكْبَرُ» لَا تُسَاوِي      بَيْنَ كَفَى يَزِيدَ نَهْلَةَ رَاحِ

(سلامة، ١٩٨٦: ٢٠٤)



و أيضاً يقول عن لسان يزيد:

لَا تُعَكِّرْ صَفْوَ الْمَلِيكِ بِذِكْرِ (م) اللَّهِ فَالذِّكْرُ مَاتَمُّ الْأَفْرَاحِ

(المصدر نفسه: ٢٠٥)

كما يشير إلى عيوبه الكثيرة ضمن عتابه لمعاوية بسبب اختياره يزيد خليفة لدولة إسلامية؛ بينما يزيد تعرّى من كل فضيلة. وقد أجاد الشاعر في تعبيره حيث استخدم الاستعارة التهكمية:

يا ابنِ هِنْدٍ أَيْتَ إِلا يَزِيدُ رَايَةَ لِلرُّشَادِ وَ الْإِصْلَاحِ  
أَنْتَ رُغْمَ الْعُيُوبِ كَاللَّيْلِ جُنْحاً قَطْرَةٌ فِي هُتُونِهِ الضُّحْضَاحِ ١١  
وَ يَزِيدُ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ تَعَرَّى وَ تَبَاهَى بِعَرِيهِ الْفُضَّاحِ

(المصدر نفسه: ٢٠٧-٢٠٨)

وفي غمرة هذا الانحطاط والخنوع كان لا بدّ للحسين (ع) أن يصرخ بوجه الطاغية قائلاً: لا.

## ٢.٦ خطاب الأشخاص ضمن سرد التاريخ لبيان أغراض

يرى الشاعر مشاهد كربلاء حية أمام عينيه، ولا يستطيع أن يكون بمنأى عن أحداثها بل يتأثر بما يرى ويؤلمه ذلك ويغريه. فيميل مع المظلوم على الظالم، ومع الخير على الشر. فحينما تقرأ أشعاره تجده ينادى في مواقف كثيرة من شعره أبطال الإسلام بأسمائهم الكريمة وأنسابهم الشريفة ويحدثهم، كما يخاطب أعداءهم ويكنيهم بعصبة الشر وأولاد الثعابين وأبناء هند. فيؤيخهم مزدرياً بأنسابهم، وكأنه يتعمد في ذلك، الخطاب بالأنساب ليشير إلى خلفيات تلك الواقعة في صدر الإسلام.

أمّا في خطاب الأعداء فيقصد توبيخهم كما يعاتبهم بسبب أفعالهم الجريئة ونكرانهم حقوق أهل بيت النبي (ص). ومن ذلك قوله في عتاب معاوية وقد ناداه بابن هند يعاتبه على اختيار يزيد للخلافة، وهو المعروف بإباحته للمحرمات، وذلك مع وجود الحسين الذي هو أولى الناس بتوليها:

يا ابنِ هِنْدٍ أَيْتَ إِلا يَزِيدُ رَايَةَ لِلرُّشَادِ وَ الْإِصْلَاحِ  
لَيْتَ عَيْنِيكَ تَبْصِرَانِ إِمامَ (م) الْهُدَى، هَذَا إِمامُ كُلِّ إِباحِي

(المصدر نفسه: ٢٠٧)

والطريف أنّه يقارن في هذا البيت بين معاوية نفسه وابنه في الآثام فيرى أنّ معاوية مع كل ما يروى عن غطرسته وطغيانه لا يساوى عشر معشار ما بلغه يزيد بفسقه العلني:

٣٠ رثاء الإمام الحسين (ع) في ملحمة عيد الغدير

رُغِمَ آثَامِكِ الْجِسَامِ ابْنَ هَنْدٍ      أَنْتَ مِنْهُ كَرِيشَةَ فِي جِنَاحِ

(المصدر نفسه: ٢٠٨)

ومن قوله معاتباً قائد الجيش الذي أمر بدياس جسم الامام (ع) وأصحابه لعدم استحيائه:

أوطأوا الخيل ظهره فاستعاد      (م) الصلْبُ وَانْقَضَّتِ الحَنَايا التَّوَاءِ<sup>١٢</sup>  
أُنعَالُ الأفراسِ دَاسَتِ حُسَيْنًا؟      يا ابنَ (سعدٍ) هَلَّا قَضَيْتَ حَيَاءَا

(المصدر نفسه: ٢٨٤)

ومن ذلك هذه الأبيات التي يخاطب فيها يزيد بعد أن قام بضرب رأس الحسين الذبيح والتي تؤيد ماسبق من أن الشاعر يتوخى البحث عن خلفيات الواقعة:

جِيءَ بِالرَّأْسِ هَامَةَ السَّبِطِ تُلقَى      بَيْنَ كَفَى يَزِيدَ بِئْسَ الأَدَانِقُ<sup>١٣</sup>  
يَتَلَهَّى بِضَرْبِ رَأْسِ الحُسَيْنِ      هَكَذَا الجِدُّ رَأْسَ حَمَزَةَ خَازِقُ<sup>١٤</sup>  
حَطَّمُ القَيْدِ يا يَزِيدُ فَأَنْتُمْ      طُلُقَاءُ لِجَدِّهِمْ وَعَتَائِقُ

(المصدر نفسه: ٣٠٣)

ويرى سلامة أن ضرب رأس الحسين (ع) سبط رسول الله من قبل يزيد إنما يشير إلى وقعة لها جذورها في تاريخ الإسلام حيث اقتدى الرجل بجذته التي مزقت كبد عم النبي وما ذلك إلاّ حقد كشف عنه مر الزمن. ومن هنا يزدرية بنسبه الدنيء وآبائه الطلقاء لجذ الحسين (ع).

وفي خطابه للإمام (ع) يشير إلى نسبه العظيم و يتغنى بمجده؛ كما في هذا البيت:

يا ابن بنت الرسولِ حَسْبُكَ فخرًا      أَنْكَ السَّبِطُ شَرَفَ الشُّهَدَاءِ  
... دُمُكَ السَّمْحُ يا حُسَيْنُ ضِيَاءُ      فِي الدِّيَاجِيرِ يَلْهَمُ الشُّعْرَاءِ<sup>١٥</sup>  
أَيُّ فَضْلٍ لِشَاعِرٍ، مِنْكَ يَعْتَمُّ      (م) اللَّأَلِي، يَصُوعُ مِنْهَا رِثَاءُ<sup>١٦</sup>

(المصدر نفسه: ٢٨٧)

فكفى بالحسين (ع) فخراً أنه سبط النبي (ص)، قتل عطشان من أجل اصلاح دين جده، فأصبح سيد الشهداء، فهو مصباح الهدى وسفينة النجاة. دمه هداية في غيابات الظلمة يرشد كل انسان، فالشعراء يستلهمون منه فينشدون رثاءاتهم. فلعلنا بقراءة هذه الأبيات نساير الشاعر في أحاسيسه المرهفة ونحس مدى تأثره بمصرع الحسين (ع)؛ كما يقول كمال السيد عن هذه الأبيات: «إن المخاطب يكاد يحس بأن الشاعر يقف على جسد الحسين (ع) و يرثيه باكياً» (السيد، ٢٠٠٤: ١٢٤).

كما يقوم بمؤاساة أهله بعد ما شاهدوا مصرع الحسين (ع) وأصحابه:

إِيهِ أُخْتِ الْحُسَيْنِ بِنْتِ عَلِيٍّ      حَمَلَتْ مَا يَزَلُّ الْبَطْحَاءُ  
... فَأَصْبِرِي فَالْحَيَاةُ دَارُ عَذَابٍ      حَسْبُكَ الْخُلْدُ جَنَّةٌ فِيحَاءُ<sup>١٧</sup>

(المصدر نفسه: ٢٨٥)

فزينب (س) بطلة كربلاء بعدما عرض لها من المصائب ما تأبى البطحاء أن تحملها، صبور لا ترى في استشهاد أحبائها، في نصف يوم، إلا جميلاً؛ لأنها بنت علي (ع) و أخت الحسين (ع). لا تنظر إلى الأحداث نظرة العامي فصبرها جميل.

### ٣.٦ المقابلة بين سمات الفئتين

إن الشاعر يتعرض لوصف سمات الفئتين كثيراً فيصف الإمام و أصحابه و يزين وصفه باستخدام المحسنات البديعية وغيرها كما يتعرض لوصف جماعة الخصم فيشوهم بتعابيره، وكل ذلك في موضعين: إذ يقف حيناً في وصفهما معاً فيقارن بينهما؛ ونستطيع أن نجد ذلك في وصفه لقلّة عدد فئة الإمام وحسن تعليقه لذلك. كما يشير إلى الخصم وكثرتهم فيستعير لهم ألفاظاً يزدريهم بها، قائلاً:

وَمَشَى مَوْكِبُ الْحُسَيْنِ قَلِيلٌ      (م) الْعَدْرُ وَ الدَّرُّ لَنَا يَكُونُ تَلَالًا  
بَلْ حُبُوبٌ قَلِيلَةٌ تَهْتَرُ      (م) الْآفَاقُ لَمَعًا وَ تَمَلُّ الْآصَالَا  
لَا يَكُونُ الطَّغَامُ إِلَّا كَثِيرًا      كُلُّ أَرْضٍ تَحْوِي الْقَدَى وَالنَّمَالًا<sup>١٨</sup>  
أَوْلَيْسَ الْجِرَادُ وَهُوَ حَقِيرٌ      يَكْسِفُ الْجَوَّ وَ الشَّرَى أَرْجَالًا<sup>١٩</sup>

(المصدر نفسه: ٢٤٥)

أما هذه المقارنة فلا تتوقف عند ذلك، بل يقوم الشاعر في مواقف مختلفة عديدة بعرض صفات سلبية لجماعة الخصم فيبرزها عندهم، كما يتعرض لفئة الامام (ع) فيصفهم بصفات إيجابية فحيناً يشبهم بالنور وآخر بالوردة وغير ذلك. فهذه الأوصاف الجزئية عن الأشخاص في كلتا الفئتين يمهد لإيجاد صورة كلية في ذهن المخاطب عن المقابلة بين الخير والشر أو النور والظلمة. وذلك يمكن أن يجده المخاطب في مواقف مختلفة من شعره ومنها وصفه لوجه شمر وكرهته:

أَبْرَصًا كَانَ تَعَلَبَى السَّمَاتِ      أَصْفَرَ الْوَجْهَ أَحْمَرَ الشَّعْرَاتِ  
نَاتِيَّ الصَّدْعَ أَعْقَفَ الْأَنْفِ      (م) مُسَوِّدَ النَّيَا، مُشَوِّهَ الْقَسَمَاتِ<sup>٢٠</sup>

٣٢ رثاء الإمام الحسين (ع) في ملحمة عيد الغدير

... مُنْتَنَ الرِّيحِ لَوْ تَنَفَّسَ فِي  
... رَعَبَ الْأُمِّ حِينَ مَوْلِدِهِ الْمَشْهُومِ

(م) الْأَسْحَارُ عَادَ الصَّبَاحُ لِلظُّلُمَاتِ<sup>٢١</sup>  
وَالْأُمُّ سَاحَتْهُ السَّعْلَاءُ<sup>٢٢</sup>

(المصدر نفسه: ٢٥٧-٢٥٨)

وكثيراً ما يصف الشاعر جماعة الخصم بوصف يشبه ذلك. أمّا في وصف الإمام (ع) وأصحابه فيستخدم عبارات جميلة كقوله في عبد الله الرضيع، ابن الإمام الأصغر حين يحضنه الحسين (ع) ويأتي به أمام الخصم ليستسقيهم له:

ضَمَّهُ الْوَالِدُ الْلَهَيْفُ لَعَلَّ  
أَيُّ طِفْلٍ؟ كَأَنَّهُ الْوَرْدَةُ الْحَمْرَاءُ

(م) الْحُبُّ يَقْصِي عَنِ الصَّغِيرِ الْعَنَاءُ  
(م) جَفَّتْ، لَمْ تَشْرَبِ الْأَنْدَاءُ  
كَلَّمَا الْجِلْمُ مَاجَ فِيهِ أَضَاءُ

(المصدر نفسه: ٢٧٥)

أو كقوله في ابنه الأكبر:

فِي بَهَاءِ الرَّيِّعِ يَطْلَعُ بَسَاماً  
تَلَسَّمُ الشَّمْسُ وَجْهَهُ وَتَمْنَى

(م) وَ يَفْتَرُّ زَنْبِقاً وَمَلَاباً<sup>٢٣</sup>  
لَوْ حَبَّأَهَا مِنْ حُسْنِهِ جَلْبَاباً<sup>٢٤</sup>

(المصدر نفسه: ٢٧٠-٢٧١)

أمثال ذلك أيضاً كثير في شعره، وبذلك كله تمكّن الشاعر أن يصوّر في ذهن المخاطب صورة كلبية منتزعة عن الصور الجزئية وهي المقابلة بين النور والظلمة أو الخير والشر.

٤.٦ ذكر فضائل الامام (ع).

إن الشاعر في مواقف كثيرة من الملحمة، يتكلّم عن فضائل أهل البيت (ع) خاصّة الإمام الحسين (ع) كما يشير إلى بطولته الجسدية في الحرب حيث لا يتجرأ الخصم أن يناضه من قرب:

لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا سِهَامٌ  
أَنْصُلًا يُطْلِقُونَهَا مِنْ بَعِيدٍ

فَتَنَادَوْا وَآمَطَرُوهُ الْبَلَاءُ  
فَتَرَامَى فِي جِسْمِهِ عَمِيَاءُ

(المصدر نفسه: ٢٨٢)

وأيضاً يتكلّم عن بطولته النفسية إلى جانب بطولته الجسدية؛ فلم ير أصبر منه على المكاره حيث بقي مفرداً بين أصحابه المقتولين عطشان حزيناً جريحاً وأمامه خيل الأعداء:

على بيراني شال و حسين روستايي ٣٣

مُنْذُ صَارَ الْحَدِيدُ نَصْلَةَ سَيْفٍ      أَوْ سَنَانًا لَصَعْدَةَ سَمْرَاءَ<sup>٢٥</sup>  
لَمْ يَشَاهِدْ مِثْلَ الْحُسَيْنِ شُجَاعًا      وَ صَبُورًا يَغَالِبُ الْأَسْوَاءَ  
ظَامِنًا، ثَاكِلًا، لَهِيْفًا، جَرِيْحًا      فِي عَدُوٍّ يَكَاثِرُ الدَّمَاءَ<sup>٢٦</sup>

(المصدر نفسه: ٢٨١)

كما يمدحه في موقف آخر ويصفه بالشجاعة والعزة فإنَّ الحسين (ع) لا يزال يستعدُّ لقبول أيِّ مكروه لأنه لا يستهدف إلا الحق:

لَا يَمُوتُ الْحُسَيْنُ إِلَّا هَضُورًا      لَنْ يَمُوتَ الْحُسَيْنُ مَوْتَ الشَّاةِ  
... إِنَّ صَدْرًا يَسْتَهْدِفُ الْحَقَّ صِرْفًا      لَيْسَ يَخْشَى طَعْنَ الْقَنَا وَ الطَّبَاتِ<sup>٢٧</sup>

(المصدر نفسه: ٢٦٦)

## ٥.٦ بيان وفاء أصحاب الحسين (ع) وتضحياتهم له

إنَّ كربلاء منارة البطولة والفاء، فأصحاب الحسين (ع) ينطلقون إلى الموت بعزة وكبرياء ثائرين على الظلم مع أنهم لا يأملون نصرًا عسكرياً:

وَتَهَاوَى التُّسُورُ وُلْدُ عَلِيٍّ      فَاسْتَمَاتُوا أَشَاوِسًا كِبْرَاءَ  
تُبْتُوَا فِي الْعِرَاقِ لَأَ يَأْمَلُونَ      النَّصْرَ لَكِنَ ضَحِيَّةً وَ افْتِدَاءَ

(المصدر نفسه: ٢٧٦)

ومنه قوله عن لسان الامام (ع) لحظة استشهاده، إذ يأتيه عبدالله بن الحسن (ابن أخيه) وهو فتى لم يبلغ الحلم ليضحى بنفسه دفاعاً عنه، ولا تستطيع زينب (س) أن تمنعه. لأنَّ الفتوة لا يمنع منها بل يغريها المنع:

فَرَّ مِنْ خِيْمَةِ النِّسَاءِ وَ جَاءَ الْعَمَّ      (م) يَفْدِي، فَمَا أَجَلَ الْفِدَاءِ  
... حَاوَلَتْ زَيْنَبُ تُصَدُّ فِتْنَاهَا      مَنِ يَصُدُّ الْفُتُوَّةَ الْهُوجَاءِ؟  
إِحْسِيهِ قَالَ الْحُسَيْنُ فَلَمْ تَفْلِحْ      (م) وَ زَادَتْ عَلَيَّ اللَّطَاءَ لُطَاءَ

(المصدر نفسه: ٢٧٩)

## ٦.٦ بيان عظمة المصيبة

يقف الشاعر في مواقف عديدة من شعره فيتكلم عن فظاعة ما أصاب الحسين (ع) وأصحابه. ومن ذلك: